إشكالية اللغة العربية في الجزائر بين مخلفات الاستعمار وضغوط العولمة

أ.د.شمامة خير الدين

مقدمة

بعد أكثر من قرن من استعمار استيطاني داس كمحدلة على الهوية الجزائرية، استطاعت اللغة العربية الصمود لكي تصبح بعد الاستقلال اللغة الرسمية الأولى.

لكن رغم هذا الانتصار، لا تزال اللغة العربية تواجه إرثا استعماريا لم ينته بعد، بل أخذ يتناغم في السنوات الأخيرة مع دعوات العولمة إلى لغة عالمية موحدة وأكثر قدرة على جعل الدول العربية تلتحق بركب التقدم. كل ذلك يفرض على الجزائر الاستمرار في بناء ما دمره المستعمر والتحالف مع بقية الدول من أجل تجريم الإبادة الثقافية والنضال من أجل تنوع لغوي حافظ لهويات الدول.

أولا: موقع اللغة العربية من الهوية الثقافية ومحاربة المستعمر لها

نظرا للصلة الوثيقة بين اللغة العربية والهوية الثقافية، فقد هاجم المستعمر الفرنسي الهوية الثقافية الجزائرية من خلال لغتها (I). وحتى يؤكد رسالة التمدين المزعومة التي احتل الجزائر تحت غطائها، فقد عمل بشراسة على خلق عقدة نقص في كافة ركائز اللغة العربية، كما حرم هذه الأخيرة من مصادر تمويلها حتى يسهل عليه استبدالها باللغة الفرنسية(II).

I- موقع اللغة العربية من الهوية الثقافية

الهوية الثقافية هي المصطلح الذي جرت العادة على استعماله للإشارة إلى ثقافة مجتمع ما. ولذلك لا تحوي عديد من قواميس اللغة تعريفا للهوية الثقافية، بل إنها تعرف الثقافة.

لقد عرف قاموس لاروس Larousse الفرنسي الثقافة بأنها " مجموعة من المعتقدات المشتركة، الأحكام والتصرفات والتي توجه بصورة واعية أو غير واعية تصرف الفرد أو الجماعة".(١)

كما عرف المفكر الجزائري مالك بن نبي الثقافة بأنها " ذلك الجو المشتمل على أشياء ظاهرة مثل الأوزان والألحان والحركات وعلى أشياء باطنة كالأدوات والعادات والتقاليد، بمعنى أنها الجو العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معين وسلوك الفرد فيه بطابع خاص، يختلف عن الطابع الذي نجده في حياة مجتمع آخر". (٢)

ولم يختلف تعريف المفكر الفرنسي روجيه غارودي للثقافة كطابع خاص مميز لكل مجتمع في مختلف تفاصيل الحياة، حيث يرى أنها " الطريقة التي تعيش و تعبر بها مجموعة إنسانية عن علاقتها مع الطبيعة، مع الإنسان ومع الله و التي تترجم من خلالها علومها، تقنياتها، فنونها وتنظيمها الاقتصادي ومؤسساتها". (٣)

أما على صعيد القانون الدولي، فإن التعريف الأكثر قبولا للثقافة هو ذلك الذي أعطاه مؤتمر ماكسيكو (الماكسيك، ١٩٨٢م) حول السياسات الثقافية والذي أخذت به ديباجة الإعلان العالمي لليونيسكو حول التنوع الثقافي (٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠١م) والذي يرى أن " الثقافة يجب أن ينظر إليها بصفتها العلامات المميزة الروحية والمادية، الفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعا أو شريحة اجتماعية. إنها تتضمن فضلا عن الفنون والآداب، أساليب الحياة، الحقوق الأساسية للإنسان، طرق العيش المشترك، أنظمة القيم، التقاليد والمعتقدات ".

ولئن كانت اتفاقية حماية وتعزيز تنوع أشكال التعبير الثقافي (أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٥م) لم تعرف الثقافة، فإن مفهومها لها لايبدو مختلفا عن التعريف المشار إليه، ذلك ما يمكننا استنتاجه من التعاريف التي أعطتها لبعض المصطلحات مثل التنوع الثقافي، المضمون الثقافي وأشكال التعبير الثقافي. (٤)

أما اللغة، فإنها حسب تعريف معجم لاروس الفرنسي، عبارة عن " نظام مدلولات شفاهية خاصة بكل مجموعة من الأشخاص والتي تستعملها للتعبير أو الاتصال مع بعضها بعض ". (٥)

وبما أن اللغة خاصة بكل مجموعة على حده، وبما أن كل مجموعة لها خصوصياتها، فإن هذا النظام لا يمكن أن يكون مجرد وسيلة اتصال محايدة، بل إنه يصدق عليه تعليق الأستاذة كريستين فريشات Christine Fréchette القائلة: إن " اللغة حاملة لهوية، قيم، تاريخ

ومعنى.إنها تحقق التلاحم الاجتماعي و تدعم تنامي الإحساس بروح الانتماء إلى المجموعة ". (٦)

و هو الأمر ذاته الذي سبق للأستاذ ساتي الحسري Cati-El-Housri تأكيده بقوله : أن " وحدة اللغة ترسخ نوعا من وحدة الأفكار والمشاعر (....) و أن اللغة هي الصلة الأكثر متانة التي تربط بين الفرد والمجموعة". (٧)

إن هذه المضامين المتأصلة في أعماق النفس البشرية والتي تعبر عنها اللغة هي التي تجعل هذه الأخيرة، فعلا كما عبرت عنها المحللة النفسية آن- ماري هوبيدين Anne-Marie Houbédine بقولها:إنها " اللغة الضمنية، السرية، الحميمة، لغة التأثر الأولي والمتعة ". (٨)

وقد يجد المدافعون عن الطابع الحيادي للغة كوسيلة نقل لأفكار الكاتب و ليس للقيم الثقافية للغة الكتابة، أمثلة عديدة لكتاب جزائريين فرانكفونيين أظهروا في كتاباتهم الهوية الجزائرية في أصدق صورها ودافعوا بلغة المستعمر عن الجزائر ضد هذا الأخير، ومن بين هؤلاء الأديب الكبير محمد ديب صاحب الدار الكبرى، الحريق .....، ولكن السؤال الذي ظل محيرا لكثير من الناس هو لماذا اختار هذا الأديب فرنسا كمنفى اختياري له؟ إن الإجابة عن هذا السؤال قد نجدها في جملة قالها الأستاذ ديب: " إن اللغة الفرنسية هي منفاي " !؟

ولعل أحسن من عبر عن الصلة المتينة بين الثقافة الجزائرية واللغة العربية هو وزير الثقافة الجزائري الأسبق أحمد طالب الإبراهيمي، القائل: " للتعبير عن هذه الثقافة بكل صدقها، لا توجد سوى وسيلة واحدة: اللغة العربية [إذ] لا يمكننا سوى الاعتراف مع المؤرخين واللغويين بأن الشعب الذي يغير لغته هو شعب يغير روحه ومنظوره للعالم، لأنه وعلى غرار ما كتبه أحدهم: " الكلام بلغة أخرى، ليس قول لأفكارنا بكلمات أخرى، إنه تفكير آخر، وفي الوقت ذاته تفكير في شيء آخر (....) ومثل هذا التصرف لا يمكن أن يكون مفيدا لصحة أو مستقبل شعب ما ". (٩)

و لكل ذلك، فإنه ليس غريبا أن يقول ابن خلدون" اعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين لها ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية". (١٠)

II -محاربة المستعمر للغة العربية

إن اللغة العربية تستمد وصفها من الناطقين بها أي العرب، كما تستمد مكانتها في قلوب العرب من كونها لغة القرآن الكريم، حيث يقول المولى عز وجل : "و إنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين".(سورة الشعراء/١٩١...١٩٥) كما أنها اللغة التي بلغ بها الرسول الكريم (ص) رسالته. لذلك يقول العلامة بن خلدون: " والدين إنما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب بما أن النبي صلى الله عليه وسلم عربي ". (١١)

ولأن المستعمر الفرنسي كان يعلم أن اللغة العربية تستند في الجزائر على الركائز المشار إليها، فقد قاد استراتيجية قائمة على تحقير كافة ركائز اللغة العربية، لكي تصبح هذه الأخيرة عقدة نقص لدى الجزائري ولكي يطرح البديل لها أي اللغة الفرنسية.

لقد وصف الأستاذ دي لانيسان J.L de Lanessan، العربي بأنه بدائي غير قابل للتطور، و بأنه" منذ زمن موسى " كان " شديد السخف، عنيفا، صديقا للقتال والحرب " ولا يزال " كذلك إلى حد الآن " بدليل " لباسه، مسكنه وآدابه ". (١٢)

وفي رسالة، كتبها الأستاذ ألكسيس دي توكفيل Alexis de Tocqueville في ١٨٤٣م، ورد بشأن القرآن الكريم ما يلي: " لقد تدارست القرآن كثيرا، من أجل وبصورة خاصة موقفنا تجاه السكان المسلمين للجزائر وفي الشرق بأكمله؛ أعترف لكم بأنني خرجت من هذه الدراسة بقناعة بأنه في العالم بأسره، هناك أديان قليلة مؤذية للإنسان، كما هو عليه دين محمد. إنه برأيي، السبب الرئيسي للانحطاط الشديد الوضوح للعالم الإسلامي ". (١٣)

وللغاية ذاتها حتى المولى عز وجل، رب البشر أجمعين، لم ينظر إليه الفرنسيون كواحد أحد، بل كرب للمسلمين وآخر للمسيحيين، حيث جاء في قول هنري مارين Henry Marin عن العرب وربهم: " إن طابعهم المميز يتلخص في فكرتهم عن الرب. إن رب المسلمين، الذي بعد أن خلق العالم، ركن إلى الراحة في وحدته وسكونه، لا يحفز الناس على التقدم ". (١٤)

وهكذا و بعد زرع عقدة النقص، تمثلت المرحلة التالية في تجفيف منابع تمويل اللغة العربية لاستبدالها باللغة الفرنسية.

لقد كانت الزوايا أول مراكز للعلم، أما معهد قسنطينة والذي يقابل ما يعرف الآن بالجامعة، فقد زوده القائد خير الدين بـ ٣٠٠٠ مخطوط دفعة واحدة، لذلك ليس غريبا أن يكتب أحد مسؤولي الإدارة الفرنسية و هو بيليسييه دي رينو Pélissier de Raynaud أن " التعليم الابتدائي كان على أقل تقدير، منتشر لديهم [أي عند الجزائريين] بنفس القدر الذي كان عليه لدينا. هناك مدارس للكتابة والقراءة في معظم المدن والقرى ". (١٥)

كما كانت المساجد هي الأخرى مراكز تعليم، خاصة وأن عددها كان كبيرا، فالجزائر العاصمة، كان بها ١٧٦ مسجدا. إلا أن هذه الزوايا والمساجد ، تم تحويلها بعد الاحتلال إلى اصطبلات، إقامة

للمعمرين، صيدليات عسكرية .....، أما ما تبقى منها، فقد حرم من المصدر الرئيسي لتمويله وهو الهبات الدينية أو ما يعرف في الجزائر بالحبوس، لأن المستعمر أصدر منذ بداية الاحتلال قرارات السابع من ديسمبر/ كانون الأول ١٨٣٠م والتي سحبت الحبوس من إدارة الأئمة الجزائريين، مما جعل بيليسييه دي رينو يقول: " إن مصادرة المباني التابعة للمساجد استنزفت بصورة خاصة موارد التعليم الذي كانت تعطيه المدارس "(١٦) ،و الذي كان بطبيعة الحال باللغة العربية.

وهكذا، استبدلت اللغة العربية بالفرنسية في التعليم الاستعماري والذي يقول بشأنه المنظر بول لوروا-بوليو Paul Leroy-Beaulieu ": يقال أن غزو أي إمبراطورية هو إخضاع العالم أو مساحة شاسعة منه للغته، آدابه، أفكاره وقوانينه ". (١٧)

ثانيا: ضغوط العولمة على اللغة العربية

بعد العولمة الاقتصادية، ازدادت رغبة القوة الأعظم في العالم لتصدير نموذجها الثقافي إلى كافة أرجاء المعمورة، ومن ثم، عرفت اللغة العربية في الجزائر، مصدري ضغط إضافيين: أحدهما آت من الأمركة في حد ذاتها(I) والآخر من مستعمر الأمس على مستعمراته السابقة ومنها الجزائر وذلك على إثر المنافسة التي فرضتها الإنجليزية على لغته في عقر داره(II).

I -ضغوط الأمركة

تطلق الأمركة على غزو النموذج الثقافي الأمريكي القائم على ثقافة الاستهلاك لكافة أنحاء العالم، و الذي تعد الإنجليزية الوعاء الحامل له .

ذلك ما نلمسه بوضوح في قول دايفيد روثكوبف David Rothkopf: " إنه لمن مصلحة الولايات المتحدة اقتصاديا وسياسيا أن تسهر على أنه إذا تبنى العالم لغة واحدة، فلتكن الإنجليزية. (١٨)

وكما قد نلاحظ، فإن الأمر لا يتعلق فقط بتدريس اللغة الإنجليزية، بل بدخولها وبصورة هادئة ومستترة تحت أغطية متعددة إلى كل بيت (أفلام ،ألعاب ،موسيقى...). كيف لا؟ إذا كانت ٦٥٪ من اتصالات العالم تنطلق من الولايات المتحدة. (١٩)

كل ذلك يؤكد أن الأستاذ بيرنار كاسان Bernard Cassen كان على حق عندما قال أن الهيمنة الإمبريالية الأمريكية لا ترتكز فقط على العوامل المادية كالاقتصاد والقوة العسكرية.....، " إنها تتضمن أيضا وعلى وجه الخصوص التحكم في العقول أي في المرجعيات والرموز الثقافية ولا سيما العلامات اللغوية. إن اللغة الانجليزية توجد في مركز نظام شامل، تلعب فيه دورا مماثلا لدور الدولار في النظام النقدي الدولي. فعلى غرار المركز المزدوج كوسيلة تسوية وعملة احتياط دولية مهيمنة للورقة الخضراء والتي تسمح للولايات المتحدة بأن تعيش على حساب بقية العالم، فإن حيازة اللغة المفرطة التمركز، تمنحها ريع وضعية هائل ". (٢٠)

هذه الوضعية المهيمنة للغة الإنجليزية أدت إلى ظهور ضغوط على الدول العربية ومنها الجزائر لإعطاء مزيد من الاهتمام للغات الأجنبية وفي مقدمتها بطبيعة الحال اللغة الإنجليزية.

لقد ورد في التقرير السنوي لبرنامج الأمم المتحدة للتنمية حول التنمية البشرية (٢٠٠٢ م) أن " القيم والثقافة العربية، يمكن أن تكون متناقضة مع قيم عالم يتجه نحو العولمة ". (٢١)

كما ذهب تقرير البنك العالمي (فيفري/شباط ٢٠٠٨ م) بعنوان " إصلاح التعليم في الشرق الأوسط وإفريقيا الشمالية إلى " أن البرامج الدراسية، يجب أن تتغير لتدريس تخصصات أخرى، فالمنافسة الشديدة والتغيرات التكنولوجية المتسارعة، كلها تتطلب إمكانات لحل المشاكل ومن بينها اللغات الأجنبية والتي لا تحظى بأي تشجيع في مدارس المنطقتين المشار إليهما ". (٢٢)

ضمن هذا السياق، اتخذ مجلس الوزراء (٣٠جوان/حزيران ٢٠٠٢م(مجموعة من الإجراءات الهادفة إلى تطوير وتدعيم تعليم اللغات الأجنبية. فبالنسبة إلى اللغة الفرنسية كلغة أجنبية أولى في الجزائر، تقرر تدريسها ابتداء من السنة الدراسية ٢٠٠٤/٢٠٠٥م، بدءا من السنة الثانية ابتدائي بدلا من الرابعة ابتدائي على نحو ما كان عليه النظام القديم.

أما اللغة الانجليزية، فقد تقرر تدريسها كلغة أجنبية ثانية بدءا من السنة الأولى متوسط، بدلا من السنة الثامنة. وفضلا على كل ما سبق، فقد فتح فرع جديد على مستوى التعليم الثانوي يتمثل في قسم اللغات والذي يهدف إلى تدعيم اللغتين المشار إليهما واللتين سبق للطالب دراستهما إلى جانب لغة أجنبية أخرى يختارها بنفسه.

ولقد اعترف وزير التربية الوطنية الأسبق أبو بكر بن بوزيد بفشل ذلك الإقحام المبكر للغة الأجنبية قائلا:" إن إدخال لغة أجنبية في هذا المستوى من التعليم تسبب في اضطرابات جدية في تعليم التلاميذ (...)، ولذلك تم تأجيل تدريس الفرنسية إلى السنة الثالثة ابتدائي " ثم " تم خلال السنة الدراسية ٢٠٠٥-٢٠٠٦م وقف قرار تأجيل إدخال تدريس اللغة الفرنسية إلى السنة الثالثة ابتدائي بدءا من الدخول المدرسي ٢٠٠٦-٢٠٠٧ ". (٢٣)

II- أثر سياسات مستعمر الأمس على مستعمراته السابقة

لا يمكن أن يكتمل الحديث عن إشكالية اللغة العربية في الجزائر، دون الإشارة إلى الآثار المباشرة أو غير المباشرة للسياسات الفرنسية على الجزائر وذلك بحكم عوامل كثيرة مثل القرب الجغرافي، عدد الفرانكفونيين الجزائريين، الجالية الجزائرية بفرنسا....

لقد تعرضت فرنسا شأنها شأن كافة الدول لغزو اللغة الانجليزية ، إلى درجة قول الأستاذ ميشيل سير Michel Serres أن الكلمات الإنجليزية الموجودة على البنايات الفرنسية، تفوق الكلمات الألمانية التي كتبت على الجدران إبان الاحتلال الألماني لفرنسا، بل إن النشرات الداخلية لمؤسسات فرنسية عريقة مثل رونو Renault تحرر بالإنجليزية؛ في حين بقي القانون الذي استصدره وزير الثقافة الأسبق جاك توبون Jacques Toubon من البرلمان والقاضي بفرض غرامة على كل من يستعمل اللغة الإنجليزية داخل المؤسسات الحكومية، حبرا على ورق. (٢٤)

كل ذلك دفع فرنسا إلى التحرك داخليا وخارجيا لإنقاذ لغتها. وفي كل ذلك، سنلاحظ تأثيرات واضحة على اللغة العربية في الجزائر.

فعلى الصعيد الداخلي، قادت فرنسا نضالا مناقضا لنضالها على الصعيد الدولي والذي دافعت فيه عن التنوع اللغوي. لقد شددت الخناق على تعليم اللغة العربية لأبناء المهاجرين -ومعظمهم كما هو معلوم من الجزائر- ولا سيما في الطورين الابتدائي والثانوي، حيث تم تقليص عدد المعلمين باستمرار، بزعم أن عدد الطلبة الذين يرغبون في تعلم العربية ضئيل جدا. (٢٥)

أما المهاجرون الذين يرغبون في الحصول على الجنسية الفرنسية، فإنهم مطالبون بإثبات الاندماج بالمجتمع الفرنسي، وأهم دليل على ذلك هو تكلم أو فهم اللغة الفرنسية، بحيث يمكن للحكومة الاعتراض بمرسوم حالة عدم تحقق الشرط، ولمزيد من التأكيد،ذهب مجلس الدولة الفرنسي في أحد أحكامه إلى أن المجهودات المحققة في مجال اللغة لاحقا، لن تؤثر على شرعية المرسوم، لأن هذه الشرعية تتحدد بتاريخ الاعتراض.(قرار مجلس الدولة،٢٦/٠٦/٢٠٠٠،رقم٢٠٧٩١ و٢٠٩٦٥٨)

وبطبيعة الحال، فإن الهدف من كل ذلك هو الرغبة في استيعاب المهاجرين وأبنائهم، وبعبارة الأستاذ بشارة خضر، فإن ما تبحث عنه الدولة الأمة من خلال الثقافة الموحدة هو " التجانس اللغوي، تقارب الآداب وتلقين القيم المشتركة (٢٦). وهذا التجانس اللغوي سيكون على حساب اللغة الأم.

أما على الصعيد الخارجي، فقد عملت فرنسا على إعطاء دفعة جديدة للغة الفرنسية خارج الحدود ولاسيما بمستعمراتها الفرانكفونية السابقة، خاصة أن ربط هذه الأخيرة ثقافيا ولغويا بفرنسا، قد أعدت له العدة قبيل الاستقلال وبعده، أفلم يعتبر الوزير الأول الفرنسي السابق ميشيل دوبري Michel Debré التعاون شرطا أساسيا لمنح الاستقلال للشعوب المستعمرة. (٢٧)

ولقد سمح هذا التعاون لفرنسا بإنشاء مجموعة من المنابر التي تمثل اللغة الرابط الأساسي فيها بين فرنسا ومستعمراتها السابقة مثل: مؤتمر وزراء التعليم المشتركين في استعمال اللغة الفرنسية، مؤتمر وزراء الشباب والرياضة للبلدان المستعملة للغة الفرنسية، ناهيك عن القمتين الأهم وهما القمة الفرنسية الإفريقية ومنظمة الفرانكفونية.

وعلى العموم، يكفي أن نقرأ تعليق الأستاذ بيير كوت Pierre Cot حول محاضرة الجزائري محمد بجاوي في أكاديمية القانون الدولي بلاهاي لفهم الأسباب التي تدفع فرنسا لمنح المنح الدراسية لطلبة اللغة الفرنسية وتوجه قنواتها الإذاعية والتلفزيونية صوب مستعمرات الأمس.

لقد رأى الأستاذ كوت أن " محاضرة بجاوي غنيمة للثقافة واللغة والتقليد القانوني الفرنسي والفرانكفوني، إن أناقة الطرح، المراجع الوفيرة، بل المستمدة حصريا من النظرية الفرانكفونية، كل ذلك يجعل منها مساهمة عظيمة في النضال من أجل لغتنا وثقافتنا، إن المحاضر لم يلوح بأي شكل بعلم الفرانكفونية، لكنه خدمها بصورة أحسن ". (٢٨)

ثالثا: دور الدولة الجزائرية في ترقية اللغة العربية و الدفاع عنها

إن المعطيات السابق ذكرها، تفرض على الجزائر إعادة بناء ما دمره الاستعمار على الصعيد الداخلي للتخلص من مخلفات الاحتلال والصمود أمام ضغوط العولمة (I) أما على الصعيد الدولي، فإنه يتعين عليها التعاون مع جميع الدول المعنية من أجل إقرار قواعد قانونية دولية تعترف بالحق في التنوع اللغوي الذي تسعى العولمة الثقافية للقضاء عليه وتجريم الإبادة الثقافية. II

I- على الصعيد الداخلي

إن بناء ما هدمه الاستعمار لا يعني مقاطعة اللغات الأجنبية ولا حتى الفرنسية وهي لغة المستعمر. ولكن و لأن الجزائر مرت باستعمار استيطاني، دام أكثر من قرن وداس كمحدلة على أغلب معالم الهوية الثقافية ولاسيما رمزها الأعلى أي اللغة، فإنه " يجب أن يكون للمرء بيت حتى يمكنه استقبال الآخرين، فإذا كان

هذا البيت قد تعرض لتخريب من قبل المستعمر، فإنه يجب البدء ببنائه ". (٢٩)

مثل هذا البناء هو الذي سيعطي الجزائر المناعة الكافية للتعامل مع بقية اللغات الأجنبية، دون أن تذوب فيها أو في القيم الثقافية التي تحملها أو تعبر عنها وهو ما شرعت فيه منذ بداية الاستقلال. لقد نص الدستور على أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة، كما عربت الإدارة والقضاء. وفي الوقت الراهن، أصبحت العلوم الإنسانية بأكملها معربة، كما تم تأسيس مجمع اللغة العربية وجمعية وطنية للدفاع عن الذخيرة الوطنية وذلك بهدف إنشاء انترنيت عربي، هناك مطبوعات أكاديمية باللغة العربية في كافة التخصصات، إعلام مكتوب، مرئي ومسموع باللغة العربية. إلا أن العقبة الأساسية التي تواجه اللغة العربية في الجزائر تبدو نفسية بالدرجة الأولى، وهذه هي الجذوة التي خلفها الاستعمار وتنفخ عليها اليوم رياح العولمة من خلال الطروحات القديمة الحديثة حول عدم دقة العربية كلغة أو صلاحيتها كلغة علم.

ولكن، قد يقول قائل، بما أن العقبة نفسية بالدرجة الأولى، ما الذي يمكن للدولة أن تفعله؟

مما لا شك فيه، أن الدولة شخص معنوي وأن واضعي السياسات هم البشر، لذلك، فإنه بقدر ما يستوعب هؤلاء الرهانات المرتبطة باللغة وبصلتها بالهوية الثقافية لأهلها وكذا بما يصبو إليه المعولمون المروجون لمزايا اللغة الموحدة في عهد العولمة، بقدر ما تتجه السياسات نحو ترسيخ مكانة اللغة العربية، بل وأكثر من ذلك: العمل على ترقيتها للتصدي لكافة الطروحات القديمة الحديثة حول عدم صلاحية اللغة العربية كلغة علم والتي يكذبها الواقع.

لقد وصف جاروسلاف ستيكيفيتش Jaroslav Stekevych اللغة العربية بقوله:" إنها كالمرأة الجميلة ولدت في حالة من الجمال الكامل، ولقد احتفظت بهذا الجمال، رغم هزات التاريخ وقوى العصر ". (٣٠)

أما من حيث الدقة، فقد وصف العلامة بن خلدون اللغة العربية بقوله: "الكلام العربي أوجز وأقل ألفاظا وعبارة من جميع الألسن وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم " أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا "، واعتبر ذلك بما يحكي عن عيسى بن عمرو وقد قال له بعض النحاة إني أجد في كلام العرب تكرارا في قولهم زيد قائم وإن زيدا قائم وإن زيدا لقائم والمعنى واحد.فقال له إن معانيها مختلفة فالأولى لإفادة الخالي الذهن من قيام زيد والثاني لمن سمعه فتردد فيه والثالث لمن عرف بالإصرار على إنكاره فاختلفت الدلالة باختلاف الأحوال ". (٣١)

أما عدم صلاحية العربية كلغة علم فإن أحسن رد عليه، هو ذاك الذي قاله الأستاذ هدروق ميموني:" ماهي اللغة؟ إنها أداة، وسيلة، وقيمة الأداة أو الوسيلة هي من قيمة المستعملين لها. (....) إن كمان ستراديفاريوس [أي الكمان الذي صنعه ستراديفاريوس] بين يدي جاهل سيسلخ آذانك [في حين أن] كمان قيمته أربعة سنتات بين يدي بارع سيسحرك (....) إن اللغة العربية ستراديفاريوس، نادرا ما وجد نفسه في العصر الحديث، بين يدي بارع (...)؛ عندما كان ابن سينا يكتب مؤلفاته في الطب لم يخلق لغة جديدة (....) عندما كان الفارابي يؤلف مقطوعاته الموسيقية، لم يستعمل هو الآخر لغة جديدة، لقد استعمل لغة عنترة، لكن الاثنين أثريا هذه اللغة، لأنهما كانا يتحكمان فيها (....) وعندما يتحكم أي عالم وفي أي تخصص في لغته، فإنه يخلق ويفرض المصطلحات التي يحتاج إليها، مع احترام عبقرية لغته في آن واحد". (٣٢)

II - على الصعيد الدولي

إن الجزائر مطالبة ببذل جهد مزدوج على الصعيد الدولي، فمن ناحية، يجب العمل على تجريم الإبادة الثقافية ومن ناحية أخرى، السعي إلى إقرار الحق السيادي لكل دولة في التنوع اللغوي من خلال مواثيق قانونية إلزامية.

إن الغرض من ذلك التجريم ليس محاسبة الدول المتورطة في تلك الإبادة بأثر رجعي، ولكن، وعلى الأقل، لعدم تكرار ذلك ووضع عقبة أمام دعاة الثقافة الواحدة بلغتها الموحدة، والتي حذر منها الأستاذ ناجي سفير بقوله: " هناك (....) الهيمنة الكاسحة لنموذج ثقافي وهو ذلك الذي يتمثل في الحضارة الاستهلاكية الغربية والتي تهدد على أقل تقدير بتهميش وربما إبادة بقية النماذج، دافعة إياها إلى موقف واحد من أجل البقاء وهو: إثبات تفردها "(٣٣)، في حين أن الثقافات، يفترض فيها أنها متعددة، متنوعة ومثرية لبعضها بعض، بدلا من أن تكتفي بمجرد الدفاع عن نفسها.

ولقد عرف الأستاذ لامكين الإبادة الثقافية بأنها "محاولة تدمير أمة وتضييع شخصيتها الثقافية".(٣٤)

إن هذا التعريف يصدق تماما على ما فعلته فرنسا باللغة العربية في الجزائر من خلال ما عرف بقوانين جيل فيري Jules Ferry ١٨٨٣م والتي قال بشأنها أحد مسؤولي الإدارة الاستعمارية الفرنسية بيليسييه دي رينو Pelissier de Raynaud أنها " إبادة ثقافية " ووصفها الأستاذ عبد القادر جلول بأنها " آلة حقيقية ضد اللغة العربية والاسلام ". (٣٥)

كما اعتبر الفقيه دونوديو دي فابر Donnodieu de Vabre الإبادة الثقافية جريمة تظهر في صورة حرمان الشعوب من تعلم لغتها الوطنية.(٣٦) وهي بمثابة كارثة للحضارة أكبر من التصفية البشرية، (٣٧) على حد قول الأستاذ عبد

العزيز العشاوي.

كما يرى جانب آخر من الفقه إمكانية إدخال الإبادة الثقافية ضمن الجرائم ضد الإنسانية المنصوص عليها في ميثاق روما المنشئ للمحكمة الجنائية الدولية، وذلك استنادا إلى كون الفقرة ١/ك من المادة ٧ قد جاءت على سبيل المثال لا الحصر، إذ تنص على " الأفعال اللإنسانية الأخرى ذات الطابع المماثل والتي تتسبب عمدا في معاناة شديدة أو في أذى خطير يلحق بالجسم أو بالصحة العقلية أو البدنية ". (٣٨)

ورغم أن العولمة وبفضل تكنولوجيا الإعلام والاتصال قد تفتح الحدود لأية لغة لعبور حدودها الإقليمية، فإنها مع ذلك قد تفرض عليها الانحصار أمام لغات القوى الكبرى وفي مقدمتها الإنجليزية.

وتزداد تلك المخاوف إذا علمنا بأن المادتين الخامسة والسادسة من اتفاقية حماية وتعزيز تنوع أشكال التعبير ال ثقافي٢٠٠٥م لم يرد فيهما ذكر للغة.

وقد يكون المثال الموالي نموذجا للمحاصرة التي قد تفرضها العولمة على اللغة العربية. ففي ٢٠٠١م، ورد في تقرير الممثل الأمريكي للتجارة حول القيود التي تتمسك بها الدول الأجنبية والتي تواجه التجارة الأمريكية، أنه فيما يتعلق بتعبئة ووسم البطاقات الخاصة بالدواجن واللحوم، يشتكي المصدرون الأمريكيون من كون الشروط المصرية، فيما يتعلق بوضع البيانات باللغة العربية داخل وخارج التعبئة، قد تؤدي إلى زيادة الأسعار عند طرحها في السوق ومن ثمة تثبيط المصدرين. (٣٩) و مما يزيد الطينة بلة، أن خلافا كهذا لو طرح أمام منظمة التجارة العالمية ،لكان حظ الجانب الأمريكي في كسب القضية أوفر ،لأن المنظمة المذكورة تحمي حرية التجارة و زيادة تدفقها أكثر من أي اعتبار ثقافي .

خاتمة

في ختام هذه الورقة، يرغب المرء في التأكيد على استنتاجين، ثم تقديم توصيتين.

أولا: الاستنتاجات

١. استحالة فصل اللغة عن الهوية الثقافية لأية دولة.

٢. دور اللغة الأم في إكساب أهلها المناعة التي تحفظهم من الذوبان في قيم اللغات الأخرى التي قد يستعملونها.

ثانيا: التوصيات

١.الكف عن تحميل اللغة العربية مسؤولية تخلف العرب، لأن لغة سعت القرآن الكريم، وكتبت بها مؤلفات ابن سينا، الرازي...، جمعت النحو بأكمله في ألف بيت شعري وهي عدا كل ذلك وخلافا لجميع اللغات الأخرى تستطيع أن تشكل بحروفها لا غير لوحة فنية لا يمكن اعتبارها سبب تخلف، مع ضرورة التذكر بأنه لو أن كل لغة اجتاز أهلها مرحلة تخلف، تخلت عنها شعوبها لصالح لغات الدول المتقدمة، لكانت اللغة العربية ذاتها قد قضت على لغات القرون الوسطى، عندما كانت العربية هي لغة العلم.

٢.عدم التعويل على رجال الدين أو أهل الأدب لإثراء اللغة العربية بالألفاظ العلمية الحديثة، لأن ذلك من مهام العلميين أنفسهم، مما يقتضي تحكم هؤلاء في اللغة العربية، لأنهم بقدر ما يتحكمون فيها، بقدر ما يساهمون في إثرائها، دون أن يعني ذلك معاداة اللغات الأجنبية، لكن يجب أن يكون للمرء بيت حتى يمكنه استقبال الآخرين.

المراجع

١-Paris : Editions) ,2008 Larousse 2007,Larousse( ).277.p,

٢-مالك بن نبي، تأملات، الطبعة ٦.(دمشق: دار الفكر العربي، ٢٠٠٦)، ص ١٤٧.

٣-Roger Garaudy, L'islam vivant, (Alger : Maison des livres 1986), p. 94.

٤-انظر الفقرات ١ ،٢و ٣من المادة ٤.

٥- Larousse 2008, 578.

٦- Christine Fréchette , " Protéger la langue à l'ère de la mondialisation" , mars 2007, www.cslf.gouv.qc.ca/pdf.f220/publications/pubf220 consulté le 2010/07/18 à 9h 10mn

٧-Cité par Abdelaziz Djérad, Dualité du monde arabe, (Alger : ENAP-ENAL-OPU , 1987), p.44.

٨-Cité par Chems Eddine Chitour, De la traite au traité . Histoire d'une utopie,)Alger : Casbah Editions, 2007), p. 258.

٩-Ahmed Taleb Ibrahimi, De la décolonisation à la révolution culturelle (1962-1972),3éme édition, (Alger : SNED 1981), p. 245.

١٠-عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة، (بيروت: دار العلم، ١٩٧٨)، ص ٣٧٩

١١- المرجع نفسه ،379.

١٢-Cité par Olivier Le Cour Grandmaison, Coloniser, exterminer. Sur la guerre et l'Etat colonial, (Alger : Casbah Editions, 2005), p.31

١٣-Cité par Alain Gresh, L'Islam, la

République et le monde, (Alger 377.p, (2006 ,: Casbah Editions
١٤- Cité par Chems Eddine Chitour,L'Occident à la conquête du monde.Une extermination sans repentance, (2009,(Alger :ENAG éditions 93.p,
١٥- Idem, 332-334.
١٦- Idem, 333-334
١٧- Idem, ٨٧
١٨- Cité par Herbert Schiller, " vers un nouveau siècle d'impérialisme américain" , Le Monde diplomatique ,n 533 (1998).pp 18.19.
١٩- Armand Mattelard, " La nouvelle idélologie globalitaire " , Mondialisation au-de là des mythes, (Alger : Casbah Editions, 1997), p. 85.
٢٠- Bernard Cassen ; " Un monde polyglotte pour échapper à la dictature de l'anglais ; Le Monde diplomatique,n0 610, (2005), p. 22.
٢١- Saida Beddar , "Le grand Moyen-Orient : un projet " post colonial" global " , http://www.ehess.fr/cirpes/publi/sbpostcol.html ,consulté le 30min 9h à 2010/07/18
٢٢- Banque mondiale, http://go.BI CUVEJO 95/Worldbank.org 9h à 2010/07/18 , consulté le 42mn
٢٣- Boubakeur Benbouzid,La réforme de l'éducation en Algérie. Enjeux et réalisations,(Alger : Casbah éditions,2009) ,p.85.
٢٤- شمامة خيرالدين؛ " منع الرموز الدينية في فرنسا. دفاع عن اللائكية أم أشياء أخرى ؟ "، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية ، العدد ١١، (٢٠٠٤)، ص ١٩١-١٩٢.
٢٥- Georges Morin, " Relations humaines, migrations et échanges culturels en Méditerranée occidentale" ,sous la direction de M Boukella, X Benabdellah,M Y Ferfera, La Méditerranée occidentale entre régionalisation et mondialisation, (Béjaia- Créad, 2000), p.251.
٢٦- Bichara Khader, Le grand Maghreb et l'Europe. Enjeux et perspectives 2ème édition, (Paris : Publisud, 1995) p. 107.
٢٧- Nasser Eddine Ghozali, Les zones d'influence et le droit international public, (Alger : OPU, ١٩٨٥), p.٢٤٩.
٢٨- Mohamed Bédjaoui ; " L'humanité en quête de paix et de développement " ; commenté par Jean-Pierre Cot, Annuaire français de droit international, (Paris: CNRS éditions, 2008), p. 747 .
٢٩- Ibrahimi,194.
٣٠- Cité par Edward Said ;"La langue,la Ralls et la walswagen" ;Le Monde diplomatique , n 605,(2004),p.17.
٣١- ابن خلدون،٥٥٦.
٣٢- Mimouni، ٥٧
٣٣- Naji Safir، " Espace méditerranéen et dimenion culturelle : mutations sociales et dynamiques identitaires"، sous la direction de Christian Raynaud et Abdelkader Sid Ahmed، L'avenir de l'espace méditerranéen، (Paris : Publisud، ١٩٩١)، p. ٢١٥
٣٤- Raphaël Lemkin ، " Le crime de génocide " , Revue de droit international, de sciences diplomatiques et politiques, n0 24, (1946), p.215
٣٥- L'Occident، Cités par Chitour، ٣٥٤.
٣٦- لخضر زازة ،أحكام المسؤولية الدولية في ضوء قواعد القانون الدولي العام،(عين مليلة :دار الهدى،٢٠١١) ،ص ٢٠٥.
٣٧- عبد العزيز العشاوي،محاضرات في المسؤولية الدولية،(الجزائر: دار هومة، ٢٠٠٧) ،ص٨٧
٣٨- Michel Bélanger، Droit international humanitaire,(Paris :Gualino Editeur,2002),p.124.
39- Fréchette